ملامح المجتمع الجديد في عصر النبوة

أ.د. هاشم يحيى الملاح(*)

ان من الأمور المتفق عليها بين الفلاسفة وعلماء الاجتماع ان الحياة الاجتماعية ضرورة ملحة لبني الإنسان. وقد عبر عن ذلك أرسطو بقوله:"أن الإنسان اجتماعي بطبعه". وقد ذهب ابن خلدون إلى ان ميل الإنسان إلى الاجتماع الإنساني ينبع من حاجة بني الإنسان لبعضهم البعض في تأمين سبل معاشهم عن طريق تقسيم العمل والتعاون فيما بينهم من اجل إشباع حاجاتهم الأساسية من غذاء وكساء وتكاثر ودفاع عن النفس.

وقد ترتب على هذه الحقيقة الأساسية نشوء (المجتمع) بأبسط صورة وأشكاله منذ عصور سحيقة. ثم أخذ بالنمو والتطور بحسب نمو تجارب الإنسان وتطور معارفه عبر الزمن، فظهرت مجتمعات كثيرة، تتفاوت فيما بينها بحسب ما حققته في مجال التقدم الحضاري، كما تختلف عن بعضها البعض في معتقداتها وقيمها وتنظيماتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وقد لاحظ ابن خلدون ان المجتمع الإنساني ما يكاد يظهر ويصل في تطوره إلى درجة من الرقي تستدعي تقسيم العمل وظهور الملكية حتى تظهر المنافسة بين أفراده ويسعى القوي للسيطرة على الضعيف واستغلاله. ومن ثم، تنشأ الحاجة إلى ظهور السلطة أو كما يسميها ابن خلدون (الوازع)، لتتولى فرض النظام في المجتمع وتحقيق التوازن أو العدالة بين أفراده.

(*) عضو المجمع العلمي العراقي- كلية الآداب / جامعة الموصل.

وهكذا، فقد اقترن وجود المجتمع بوجود السلطة منذ العصور القديمة. وقد تنوعت أشكال السلطة بحسب حظ المجتمعات من الحضارة والعمران. وكان من اقدم أشكال السلطة سلطة الأب على أفراد عائلته، وسلطة الشيخ على عشيرته أو قبيلته، وسلطة الأمير أو السلطان على إمارته أو مملكته، وهكذا[1].

ان دراسة تاريخ المجتمع العربي قبل الإسلام، تشير إلى ان هذا المجتمع قد عرف كل هذه الصور من أشكال السلطة الأبوية في الأسرة ، وعرف سلطة المشيخة في القبائل العربية وبخاصة في البدو وبعض مدن الحجاز ووسط الجزيرة العربية، وعرف السلطة الملكية في شمال الجزيرة العربية وجنوبها.

ويرى فقهاء القانون الدستوري ان أي مجتمع من المجتمعات إذا استطاع ان يحقق عيشا مستقرا على أقلم معين من الأرض، وامتلك سلطة عليا تفرض النظام على أفراده فرضا ملزما، ومن غير خضوع لسلطة أجنبية، فانه يكون قد وصل في تطوره مرحلة (الدولة)، وهو ما عبر عنه ابن خلدون بـ(الملك) وهو يرى انه من سمات الحكم في المدن والحواضر.

يظهر مما تقدم، ان المجتمعات العربية قبل الإسلام كانت قد عرفت ظاهرة السلطة، والعيش في ظل حكم الدولة أو الملك وبخاصة في اليمن والعراق والشام. أما في مدن الحجاز مثل مكة والمدينة والطائف فانها كانت تعيش في ظل سلطة

(١) ابن خلدون، عبد الرحمان، تاريخ العلامة ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، بيروت (دار الكتاب اللبناني) بلا ت، مجلد ١، ص ٦٩-٧٣، الملاح، د. هاشم يحيى، دراسات في فلسفة التاريخ، الموصل ١٩٨٨، ص ١٧٩-١٨٧.

شيوخ القبائل الذين تطورت سلطاتهم بمساعدة مجلس القبيلة (الملأ) إلى ما يقرب من سلطة الدولة أو ما يعرف ب(دولة-المدينة)[٢].

في ظل هذه الظروف الاجتماعية والسياسية ظهر الإسلام في مكة، وأخذت تتحدد فيها ملامح المجتمع الإسلامي (الجديد) في إطار صراعه مع المجتمع المكي (القديم)، فما الملامح الأساسية لهذا المجتمع كي نستطيع من خلال المقارنة معه ان نتوصل إلى تحديد المعالم العامة للمجتمع الاسلامي الناشئ.

ملامح ـ المجتمع القديم في مكة

من المعروف ان الانتماء إلى الأسرة والعشيرة والقبيلة كان هو الأساس الذي يقوم عليه المجتمع المكي شأنه في ذلك شأن جميع المجتمعات الموجودة في شبه الجزيرة العربية في عصر الرسالة. فكان معظم أبناء مدينة مكة ينتمون إلى قبيلة قريش، ويشعرون من ثم، أنهم ينحدرون من جد أعلى واحد. لذا فقد كانت العلاقة بينهم تقوم على أساس المساواة بين الأفراد، والتعاون والتكافل فيما بينهم في السراء والضراء وبخاصة في مواجهة الأعداء. وكان العربي يعد كل من لا ينتمي إلى عشيرته أو قبيلته بالأصالة أو التحالف في حكم الغريب والعدو[٣]. وقد أطلق ابن خلدون على الرابطة الاجتماعية التي تشد أبناء القبيلة إلى بعضهم اسم (العصبية)، وهي أقوى ما تكون بين البدو بسبب قسوة الحياة التي يحيونها وكثرة

(٢) الملاح، د. هاشم يحيى، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، الموصل، ١٩٩٤، ص ٢٨١-٢٨٧.

(٣) ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مصر، ١٩٥٥، ق١، ص ١٠٤-١٠٦، الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٣٧٣-٣٩٢.

المخاطر التي يواجهونها في حياتهم. وتقضي العصبية بأن ينصر ابن القبيلة أخاه ظالما كان أو مظلوما[٤].

وكان يتولى قيادة المجتمع في مكة رؤساء الأسر والعشائر. وكان يطلق عليهم (رجال الملأ). وقد استمد هؤلاء الملأ حقهم في القيادة من مكانتهم في أسرهم وعشائرهم، فضلا عن تمتعهم ببعض الفضائل الأخلاقية التي تجعلهم جديرين بالزعامة كالحكمة وسداد الرأي، والكرم، والشجاعة.

وبالنظر إلى شعور رجال الملأ المكي في عصر النبوة بأنهم متساوون في الشرف والمكانة فأنهم لم يسمحوا لأحدهم بأن يكون سيدا أو ملكا عليهم. وقد فضلوا ان يكون الحكم (شورى) بينهم، فإذا اتفقوا على رأي التزموا جميعا بتنفيذه، وحمل كل سيّد عشيرة أو أسرة قومه على العمل بما اجتمع أمرهم عليه. أما إذا اختلفوا في أمر من الأمور، فأنهم يستمرون بالمشاورة والمناقشة والضغط على الأقلية من أجل حملها على موافقة الأغلبية. فان عجزوا في خاتمة المطاف عن الوصول إلى الإجماع، وهذا لا يكون إلا في الحالات الصعبة جدا، فان ذلك يؤذن بالانقسام والحرب بين الاخوة وأبناء القبيلة الواحدة. وهذا لم يحصل في تاريخ قبيلة قريش إلا عندما ظهر الإسلام، وآذن بانهيار المجتمع القديم تمهيدا لظهور المجتمع (الإسلامي) الجديد. أما الأزمات التي سبقت ظهور الإسلام، كأزمة تقاسم وظائف مكة بين أبناء عبد مناف، والأزمة التي أدت إلى حلف الفضول، فقد تم التغلب

(٤) ابن خلدون، كتاب العبر، ج١، ص ٢٢٣-٢٢٦.

عليها وتجاوزها بسبب ما اشتهر به زعماء مكة من براعة في المفاوضة والمشاورة والمساومة(٥).

لقد كان المجتمع المكي يعتمد في حياته ورفاهه على التجارة التي ارتبطت بموقع مكة (الديني) حيث كان العرب (المشركون) يحجون إلى الكعبة، ويطوفون حولها في مواسم معينة من السنة. كما كانوا يزورون مكة لتقديم النذور والقرابين لأصنامهم التي يعتقدون ـ شأنهم شأن أهل مكة-أنها آلهة تشفع لهم عند الله تعالى، وتساعدهم في التقرب من الله زلفى(٦). لقد عد زعماء مكة دعوة الإسلام إلى التوحيد ونبذ الشرك خروجا على تقاليد الآباء والأجداد، وتقويضا للأسس الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يقوم عليها مجتمعهم. فلا غرابة ان يتصدوا لمعارضته بكل قوة وحزم، ولا عجب ان يؤدي ثبات المؤمنين الأوائل على عقيدتهم، وجلهم من أبناء قبيلة قريش، إلى تفاقم الانقسام في داخل قبيلة قريش وتحولها إلى جماعتين: جماعة المؤمنين المسلمين، وجماعة المشركين الكافرين(٧).

ان فهم أبعاد هذا الانقسام، ومتابعة تطور الصراع بين المجتمع المكي (القديم)، والمجتمع الإسلامي الناشئ (الجديد) يتطلبان الحديث عن نشأة هذا المجتمع الإسلامي والسعي إلى إبراز الملامح التي تميز بها. وبالنظر إلى ان هذا المجتمع لم ينشأ دفعة واحدة وانما نشأ نشأة تاريخية امتدت طوال عصر النبوة، لذا فاننا سنحاول مراعاة عناصر التدرج والتطور في ظهور هذه الملامح ابتداء من

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص ١٢٣-١٤٣.

(٦) المصدر نفسه، ق١، ص ٧٦-٩٠.

(٧) الملاح، د. هاشم يحيى، الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة، الموصل ١٩٩١، ص ١٢٥-١٣٠.

ظهور الدعوة الإسلامية بعد نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم في نحو سنة ٦١٠ من الميلاد وحتى وفاته صلى الله عليه وسلم في نحو سنة ١١ من الهجرة الموافقة سنة ٦٣٢ من الميلاد.

مبادئ الإسلام ونشأة المجتمع الإسلامي الجديد في الحقبة المكية

كان نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم في غار حراء بمثابة إعلان أولي لثلاثة مبادئ أساسية من مبادئ الإسلام، وهي، الإيمان بالله تعالى وقدرته، والإيمان بأن العناية الإلهية قد اصطفت محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم من بين البشر ليكون رسول الله إلى الناس، والإقرار بدور الملائكة (جبريل) في إيصال الرسالة الإلهية إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم عبر عملية الوحي.

ويتبين من دراسة آيات القران المكية الأولى أنها قد ركزت اهتمامها على توضيح عقيدة المسلمين في الله تعالى وما يجب على الناس القيام به تجاهه من شكر وعبادة. كما تولت توضيح مسألة البعث بعد الموت وما يتصل بها من ثواب وعقاب، أو جنة ونار[٨].

ويلاحظ ان القران الكريم قد تعامل مع مسألة الإيمان بوجود الله تعالى وقدرته غير المحدودة بصفتها من المسلمات التي لا تحتاج إلى برهان، وذلك لان العرب في عصر النبوة بما فيهم المشركون كانوا يقرون بوجود الله وعظمته: قال تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

(٨) سورة العلق: الآيات (١-٥)، سورة القلم: الآيات (١-٧)، المزمل: الآيات (١-٩)، سورة المدثر: الآيات (١-١٠)، سورة التكوير: الآيات (١-١٤)

لَيَقُولُنَّ اللّه)[٩]. ومن ثم، فقد انصب اهتمام القران الكريم في الحقبة المبكرة من حياة الدعوة الإسلامية على بيان فضل الله على الإنسان، الذي (خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ) والذي (عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ)، والذي خلق السماوات والأرض وما فيها من خيرات ومخلوقات وسخرها لخدمة بني الإنسان. لذا فقد أكد القران الكريم ان الله تعالى هو رب العالمين، لأنه خالقهم، ومالكهم - ومربيهم. وقد ذهب بعض المفسرين إلى ان "الرب هو اسم الله العظيم لكثرة الداعين به، ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار على كل حال"[١٠].

ويلاحظ ان القران الكريم وهو يوضح صفات الله وعظمته وتفرده بالوحدانية المطلقة، لم يلجأ في المرحلة الأولى من تاريخ الدعوة، إلى مهاجمة الشرك والمشركين، لأن الدعوة الإسلامية كانت في بدايتها، وكان أفراد الجماعة الإسلامية قليلين، ومن ثم كان من الحكمة التأكيد على الجوانب الإيجابية من الدعوة، وعدم الإشارة إلى ما ينفر المشركين منها ويدفعهم إلى مقاومتها.

ولم تقتصر آيات القران الأولى على توضيح صفات الله وقدرته، بل انها أكدت على ان الله تعالى سيبعث الناس بعد موتهم ويحاسبهم على أعمالهم في الدنيا، فيكافئ المحسنين بإدخالهم إلى الجنة ويعاقب الكافرين بعذاب الجحيم. وهكذا فقد شغل الحديث عن البعث بعد الموت، والجنة والنار، حيزا كبيرا من آيات القران الكريم، وذلكم لأن معظم المشركين العرب لم يكونوا يقرون بالبعث بعد الموت،

---

(٩) سورة العنكبوت: الآية ٦١.

(١٠) القرطبي، محمد بن احمد الأنصاري، الجامع لأحكام القران، القاهرة، ١٩٥٢، ج١، ص ١٣٦-١٣٧.

ولم يكونوا يؤمنون بوجود ثواب أو عقاب بعد الموت[١١]، وكانوا يرددون (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين)[١٢]، (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت)[١٣].

ان حرص القران الكريم على إقناع الناس للإيمان بعقيدة البعث بعد الموت يرجع إلى ان هذه العقيدة تمثل الحافز الذي يدفع الإنسان دفعا ذاتيا لمراقبة نفسه ومراعاة القواعد الدينية والأخلاقية في سلوكه من غير حاجة إلى سلطة خارجية تلزمه بمراعاتها، إذا ان المؤمن يعتقد أنه سيحاسب على أعماله يوم القيامة، فيجزى عليها جزاء عادلا اما بدخول الجنة أو المصير إلى الجحيم. وهكذا نلاحظ ان عقيدة الإيمان بالآخرة "تبعث الأمل وتحيي التفاؤل، وتحمل الناس على عمل الخير والصلاح وتجنب عمل الشر"[١٤].

وقد أوضحت آيات القران الكريم معالم الطريق الذي ينبغي للإنسان سلوكه للوفاء بواجب الشكر والعرفان لله تعالى على فضله ونعمته إلى بني الإنسان . وربما كان من ابرز الواجبات التي ينبغي للإنسان عملها للتقرب من الله تعالى حسبما يؤكد القران الكريم هي ان يستسلم لأوامر الله تعالى في العقيدة والعمل، فيصبح (مسلما).

وقد ذهب بعض الباحثين إلى ان آيات القران الأولى قد ربطت بين الإسلام والتزكي، فمعنى (التزكي) في الآيات استسلم لله تعالى واصبح مسلما[١٥]. وهكذا،

---

(١١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٧٧، ج٦، ص ١٢٣-١٣٥.

(١٢) سورة الأنعام: الأية ٢٩.

(١٣) سورة النحل: الأية ٣٨.

(١٤) العلي، صالح، محاضرات في تاريخ العرب، بغداد، ١٩٥٥، ص ٢٧٢.

(١٥) وات، مونتغمري، محمد في مكة، التعريب: شعبان بركات، بيروت (منورات المكتبة العصرية)، د. ت، ص ١١٨.

فقد قرن القران الكريم بين التزكي والعديد من أعمال البر التي ينبغي للإنسان عملها. فهو قد قرن بين التزكي والصلاة: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)[١٦]. وقرن بين التزكي ومساعدة الفقراء والمساكين. (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى)[١٧]. كما قرن بين التزكي والسعي من أجل التعلم والتفقه في الدين: (عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى)[١٨].

ويلاحظ ان أولى العبادات التي فرضها الله تعالى في المرحلة المبكرة من تاريخ الدعوة هي الصلاة وقيام الليل. وهكذا فقد أشار القران الكريم إلى ان الصلاة هي العبادة التي يذكر فيها الله ويتقرب بواسطتها إليه: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)[١٩]. كما أمر الله رسوله بقيام الليل من أجل تهيئة نفسه لحمل عبء الرسالة الإسلامية: (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)[٢٠].

وقد أورد الطبري خبرا يشير إلى ان "أول شيء فرض الله عز وجل من شرائع الإسلام الصلاة..."[٢١]. كما ذكر ابن إسحاق انه حين فرضت الصلاة، جاء

---

(١٦) سورة الأعلى: الأيتان ١٤-١٥.

(١٧) سورة الليل: الأيتان ١٧-١٨.

(١٨) سورة عبس: الأيات من ١-٤.

(١٩) سورة الأعلى: الأيتان ١٤-١٥.

(٢٠) سورة المزمل: الأيتان ١-٥.

(٢١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر (دار المعارف)، ١٩٦٧، ج٢، ص ٣٠٧.

جبريل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وعلمه كيف يتوضأ ويصلي، ثم قام الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أمام زوجته خديجة "فتوضأ كما توضأ جبريل، ثم ركع ركعتين، وأربع سجدات، هو وخديجة. ثم كان هو وخديجة يصليان سرا"[٢٢]. وهكذا فقد فرضت الصلاة في البداية ركعتين، ثم زيدت بعد ذلك إلى أربع ركعات، فقد روى ابن إسحاق عن عائشة أنها قالت: "أول ما افترضت الصلاة ركعتان، فأثبتت للمسافر، وأكملت للمقيم أربعا"[٢٣].

وكانت الصلاة في بدايتها تؤدى في أوقات الضحى والعصر من كل يوم وبمعدل ركعتين في كل صلاة، ثم أصبحت تؤدى في خمس أوقات في أواخر المرحلة المكية. ولم يفرض الآذان وسيلة للدعوة إلى الصلاة إلا بعد هجرة المسلمين إلى المدينة[٢٤].

ان دراسة الآيات القرآنية التي نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة تدل على ان الإسلام قد ربط بين عناية الله ورعايته للإنسان، وبين تكليفه له بأن يرعى أخاه الإنسان ويساعده على تجاوز المصاعب التي تواجهه في الحياة ان هذا التوجه الاجتماعي للإسلام يدل على مدى حرص الإسلام منذ البداية على تصحيح الخلل الاجتماعي والاقتصادي الذي كان قائما في المجتمع المكي بسبب غلبة الروح الفردية التجارية على أفراده وبخاصة الأغنياء منهم.

---

(٢٢) ابن إسحاق، محمد بن يسار المطلبي، المغازي والسير، تحقيق: محمد حميد الله، الرباط (معهد الدراسات والأبحاث للتعريب) ١٩٧٦، ص ١١٧.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ١١٧.

(٢٤) جواد علي، تاريخ العرب في الأسلام، بغداد (مطبعة الزعيم) ١٩٦١، ص ١٧٠-١٧١.

لقد أخذ القران الكريم بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم بصفته القدوة الحسنة لغيره من المسلمين بضرورة رعاية المحتاجين ومساعدتهم كأحد مظاهر التعبير عن شكره لله تعالى على اهتمامه به ورعايته له منذ الطفولة. فقد جاء في سورة الضحى: (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)[٢٥].

وقد قام القران الكريم بتنبيه الرسول صلى الله عليه وسلم على خطورة مراعاة مقاييس المجتمع المكي التجارية التي تقوم الإنسان استنادا إلى مركزه الاجتماعي وثروته وليس إلى خلقه وأيمانه، لان ذلك قد يقود إلى الانحراف عن المثل التي جاء بها الإسلام. لقد ذكر القرطبي ان سبب نزول سورة عبس على الرسول صلى الله عليه وسلم ان "قوما من أشراف قريش كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم، وقد طمع في إسلامهم، فأقبل عبد الله ابن أم مكتوم، فكره الرسول صلى الله عليه وسلم ان يقطع عليه كلامه فأعرض عنه"[٢٦]، ففيه نزلت هذه الآيات: (عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)[٢٧].

---

(٢٥) سورة الضحى: الآية ٥-١١.

(٢٦) القرطبي، الجامع لأحكام القران، ج٢٥، ص ٢٠٩.

(٢٧) سورة عبس: الآيات ١-١١.

في ضوء ما تقدم، فقد ربط القران الكريم بين التقوى ومساعدة المحتاجين، وبين الكفر والبخل، جاء في سورة الليل: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)[٢٨].

وقد عد القران الكريم الثروة وكيفية التصرف بها نوعا من الاختبار والابتلاء الرباني للإنسان، فاما الإنسان الصالح فهو يشكر الله تعالى في حالتي الغنى والفقر بينما يجزع الإنسان الطالح في حالة الابتلاء بالفقر ويعد ذلك عقوبة وإهانة له من الله تعالى. اما في حالة الغنى فانه يبخل بماله ولا يساعد اليتيم والمسكين. جاء في سورة الفجر: (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا)[٢٩].

وهكذا، فقد راح القران الكريم يدعو أبناء المجتمع المكي ان يعملوا على تجاوز عوامل البخل والشح التي ملأت نفوسهم من جراء إقبالهم الشديد على التجارة وجمع الأموال، وأخذ يوجه أنظارهم إلى ان المال عرض زائل، وأنه ينبغي ان يستخدم بالطريقة التي ترضي الله وتضمن للإنسان النجاة يوم القيامة. وقد عبرت عن هذه المعاني تعبيرا قويا سورة البلد في الآيات الآتية: (أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي

(٢٨) سورة الليل: الآيات ٥-١١.

(٢٩) سورة الفجر: ١٥-٢٠.

مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ)[٣٠].

ان القيم والمثل المذكورة آنفا، قد مثلت تهديدا خطيرا لزعماء مكة الذين تستند سلطاتهم الاجتماعية والسياسية في مدينتهم ومجتمعهم إلى ثرواتهم ونسبهم في عشائرهم. لذا فأنهم وجدوا ان مصلحتهم تفرض عليهم معارضة الدعوة الإسلامية بقوة. وهكذا اضطر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ان يمضي في طريقه نحو بناء المجتمع الإسلامي الجديد من الأفراد الذين آمنوا بمبادئ الإسلام وسعوا بإخلاص للالتزام بها، بينما وقف زعماء مكة يدافعون عن قيم المجتمع القديم بحجة أنها تمثل تقاليد الأباء والأجداد.

لقد أكد القران الكريم في مواجهة هذا الواقع ان مسؤولية الإنسان عن أعماله في الإسلام مسؤولية فردية، وان الإنسان لا يسأل أمام الله تعالى يوم القيامة إلا عن أعماله التي قام بها، فهو لا يسأل ولا يحتمل جريرة أفعال غيره من الناس سواءً أكانوا من أفراد عائلته أم عشيرته[٣١]. وهكذا فان الإسلام قد ألغى الأساس الذي تقوم عليه عادة التكافل بين أفراد القبيلة ظالمين كانوا أو مظلومين، كما ألغى المبررات التي تقوم عليها عادة أخذ الثأر التي كانت قائمة في المجتمع. لقد كان الإسلام يهدف من خلال هذا المفهوم للمسؤولية الفردية إلى استبدال قيم المجتمع القائم على تعاليم الدين والتشريع الإلهي بقيم المجتمع الجاهلي القائم على العصبية

(٣٠) سورة البلد: الآيات ٧ـ٢٠.

(٣١) سورة الإسراء: أية ١٥، سورة فاطر: أية ١٨.

القبلية والتضامن بين أفرادها في الحق والباطل، وجعل الأمة الواحدة هي البديل الأفضل عن القبائل المتعددة والمتصارعة.

وفي ضوء ما تقدم، فقد تعاطف الإسلام مع جميع الفئات المظلومة في المجتمع كالفقراء والرقيق فدافع عنهم وتبنى قضاياهم، وانتقد المشركين بسبب ظلمهم إياهم وعدم مساعدتهم، كما وضع عددا من المبادئ التي تساعد على تحقيق العدل بين أفراد المجتمع، وكان من أبرزها:

١. حث القران الكريم الناس على ان يكونوا كرماء، وان يساعدوا الفقير واليتيم، والمسكين، من اجل الحصول على رضى الله تعالى وحده[٣٢].
٢. شجع القران الكريم المسلمين على تحرير الرقيق بشتى السبل[٣٣].
٣. حرم الإسلام عادة وأد البنات التي كان يمارسها قسم من المشركين وحارب جميع أنواع المظالم التي كانت منشرة بين الناس[٣٤].

ان هذه المبادئ المنصفة التي جاء بها الإسلام، قد ساعدت على اجتذاب المستضعفين إلى الإسلام، وجعلتهم يرون فيه الطريق القويم لإنقاذهم وتحسين أوضاعهم وظروف معيشتهم العامة. وهكذا فقد اصبح الكثير من أفراد هذه الفئة من اتباع الدعوة الإسلامية وفي مرحلة مبكرة من تاريخها[٣٥].

---

(٣٢) سورة الليل: الآيات ٥-١٨، القرطبي، الجامع لأحكام القران، ج٢، ص ٥٢-٥٣.

(٣٣) سورة البلد:الآيات ١١-١٦،القرطبي، الجامع لأحكام القران، ج٢، ص ٦٦.

(٣٤) سورة التكوير: الآيتان ٨-٩، سورة النحل: الآيتان ٥٨-٥٩، الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القران، مصر، ١٩٥٤، ج١٠١، ص ٢٥٤، ج١٥، ص ٧٨.

(٣٥) سورة الشعراء: الآيات ١١١-١١٤، سورة سبأ الآيات ٣٤-٣٧.

وفضلا عما تقدم، فقد أولى الإسلام منذ سنواته الأولى، عناية خاصة للجانب الأخلاقي من حياة المجتمع، وسعى لتأسيس عدد من الفضائل العالية في نفوس المسلمين من اجل ان يقوم المجتمع الإسلامي الجديد على أساسها. لذا فقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم أتباعه على التحلي بصفات الصبر والتسامح، والصدق، والعدل، ومساعدة الآخرين[٣٦]. كل أمرهم باحترام حقوق الآخرين فحرم عليهم السرقة، وأكل أموال الناس بالباطل، والاعتداء على أعراض الناس عن طريق ممارسة الزنا، وكل الأعمال المنكرة[٣٧].

ويلاحظ ان المبادئ التي جاء بها الإسلام في الحقبة المكية لم تقتصر على المبادئ الدينية ذات الصلة بأمور العقيدة، أو المبادئ الاجتماعية والاقتصادية وانما امتدت لتشمل بعض المبادئ السياسية وذلك لان الإسلام كان ذا طابع شمولي يحاول تنظيم حياة المجتمع كافة. ومع ذلك، فان المبادئ السياسية التي جاء بها الإسلام كانت امتدادا للمبادئ الدينية التي دعى إليها، وكأنها التجسيد السياسي لتلك المبادئ.

وقد مثل الإيمان بالله تعالى وقدرته المطلقة القاعدة التي ينطلق منها التفكير السياسي في الإسلام بجميع مبادئه وأهدافه. ويلاحظ ان أساس الاعتقاد بالله تعالى كان معروفا عند العرب المشركين، إلا ان هذا الاعتقاد كان مبهما وسلبيا وليس له أثر واضح في حياتهم الاجتماعي والسياسية. فكان أبرز ما حققه الإسلام بعد ظهوره ان بعث الحيوية والنشاط في هذا الاعتقاد، وجعل منه وسيلة فعالة في هدم

(٣٦) سورة النحل:الآيات ٨٩-٩١، ١٢٥-١٢٨.

(٣٧) سورة الممتحنة: الآية ١٢، الطبري، جامع البيان، ج١٥، ص ٨٠.

المجتمع القائم على الشرك والعصبية القبلية، وإقامة مجتمع جديد قائم على أساس الإيمان بالله وحده، وتحت قيادة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم (عبد الله ورسوله).

وتتخلص المبادئ السياسية التي بشر بها الإسلام في النقاط الآتية:

١. **السيادة**: أكد القران الكريم، ومنذ البداية، ان الله تعالى هو خالق العالم وبضمنه بنو الإنسان، وانه القادر على كل شيء، والمسيطر على كل شيء. ومن ثم، فانه الحاكم الحقيقي لهذا العالم، وهو مصدر السلطة الوحيدة فيه، لذا فانه يجب على الناس كافة ان يخضعوا لأوامره، وان يطيعوا رسله إليهم(٣٨).

٢. **الاستخلاف في الأرض**: ان الله تعالى قد خلق الإنسان، وجعله مستخلفا فيها. أي ان يكون خليفة الله في الأرض يستثمرها ويعمرها لمصلحته بشرط ان يتصرف طبقا لأوامر الله ونواهيه(٣٩).

٣. **القيادة**: لقد اقتضت حكمة الله تعالى ان يصطفي عددا من البشر ليكونوا رسلا وأنبياء إلى قومهم وليتولوا تبليغ أوامره إليهم ويقوموا بقيادتهم لما فيه مصلحتهم ونجاتهم. وقد كان من أبرز الأنبياء الذين تحدث عنهم القران الكريم إبراهيم وإسماعيل وموسى وداؤد وسليمان وعيسى، الذين قاموا بقيادة قومهم على وفق أوامر الله ونواهيه. لذا فان، على الناس في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومن مصلحتهم ان يطيعوا

(٣٨) المودودي، أبو الأعلى، نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، تعريب جليل حسن الإصلاحي، دمشق ١٩٦٤، ص ١٥٠-١٥١.

(٣٩) سورة النحل: الأية ٦٢، سورة ص: الأية ٢٦.

الرسول ويمتثلوا لأوامره لأن إطاعتهم له هي في حقيقتها طاعة لله تعالى(٤٠).

٤. **المساواة الاجتماعية**: أكد القران الكريم حقيقة ان البشر جميعا من أصل واحد، وهم من خلق الله تعالى، فهم متساوون أمامه تعالى لا فرق بينهم بسبب النسب أو المال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)(٤١).

ويبدوا ان زعماء المشركين في مكة قد نظروا إلى هذا المبدأ من الناحية السياسية بصفته وسيلة لإضعاف نفوذهم في مكة لان مراكزهم السياسية والاجتماعية كانت قائمة على أساس ما يتمتعون به من شرف في النسب وكثرة في المال.

٥. **المسؤولية**: ان المسؤولية في الإسلام مسؤولية فردية، فكل إنسان مسؤول عن أعماله الخاصة ولا يتحمل وزر أعمال غيره من الناس. وقد ساهمت هذه الفكرة في إضعاف تماسك المجتمع المكي القائم على الشرك والعصبية القبلية، وشجعت الأفراد على الخروج على إرادة عشائرهم والدخول في الإسلام(٤٢).

٦. **المجتمع الجديد (الأمة)**: بدأ المسلمون منذ بداية العهد المكي بتشكيل مجتمع جديد له مقوماته الخاصة وملامحه المتميزة تحت قيادة محمد صلى الله عليه وسلم عبد الله ورسوله وقد أطلق القران الكريم على هذا المجتمع تسمية (أمة).

---

(٤٠) سورة القصص: الآيات ٣٠-٤٠، سورة ص: الآيات ١-٤٠، الطبري، جامع البيان، ج٥، ص ١٧٧.

(٤١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٤٢) سورة الإسراء: الآية ١٥، سورة فاطر: الآية ١٨.

وقد وعد الله تعالى هذه الأمة بان يدافع عنها وينصرها على أعدائها كما دافع عمن سبقهم من المؤمنين(٤٣).

وان مما يجدر ذكره في هذا المجال ان القران الكريم قد أكد ان رسالة الإسلام التي نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم هي امتداد للرسالة الدينية التي نزلت على جميع الأنبياء السابقين: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)(٤٤).

ان اعتراف الإسلام بأنه امتدادا للأديان السماوية الأخرى كالمسيحية واليهودية قد مهد الطريق لإقامة علاقات إيجابية بين المسلمين واتباع هذه الديانات. وقد تجلى ذلك واضحا في هجرة المسلمين إلى الحبشة (المسيحية) طلبا للحماية والأمن، وفي كتابة الصحيفة (دستور المدينة) التي نظمت العلاقات بين المسلمين ويهود المدينة كما سنشرح ذلك لاحقا. وأخيرا، وبعد سيادة الإسلام على شبه الجزيرة العربية أعلن القران الكريم منح الأمن والحماية لاتباع هاتين الديانتين بصفتهم(أهل ذمة) ومن ثم، فقد اصبحوا جزءاً من المجتمع الإسلامي الجديد يعيشون ويتكاتفون مع بقية أفراده من المسلمين.

٧. **مقاومة الطغاة**: لقد وصف القران الكريم زعماء المشركين في مكة بأنهم (طغاة) لأنهم رفضوا الخضوع للأوامر الإلهية، وعارضوا الدعوة التي حملها إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لذا فقد حذرهم من ان مصيرهم في هذه

(٤٣) سورة الأنبياء: الآية ٩٢، سورة يونس الآيات ١٢-١٩، ٤٢-٥٢، سورة غافر: الآيات ٤٧-٥١.

(٤٤) سورة الشورى: الآية ١٣.

الدنيا سيكون شبيها بمصير فرعون إذا لم يؤمنوا بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ويسلموا أمرهم إلى الله تعالى(٤٥).

وقد عد القران الكريم (فرعون) الذي كان ملكا على مصر القديمة في عهد نبي الله موسى عليه السلام نموذجا لحكم الطغاة لأنه رفض الإيمان بالرسالة التي جاء بها موسى عليه السلام، ودعا قومه لعبادته بدلا من الله تعالى. وفضلا عن ذلك فأنه كان قد قسم قومه إلى شيع وأحزاب متنافره، كما اضطهد بني إسرائيل لأنهم آمنوا بالرسالة الدينية التي جاءهم بها موسى عليه السلام.

٨. **الأنبياء-الملوك:** لقد تحدث القران الكريم عن النبي داود والنبي سليمان (عليهما السلام) اللذين حكما بني إسرائيل بصفتهما نموذجا لحكم (الأنبياء-الملوك) الصالحين، وذلك لأنهما حكما قومهما طبقا لأوامر الله تعالى ونواهيه(٤٦).

ويبدو ان القران الكريم كان يستهدف من خلال تقديم هذا النموذج، أعداد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه لإنشاء مجتمعهم المستقل عن المجتمع المكي الذي سيحكم طبقا للأوامر الإلهية التي جاءت إلى محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحي كما حصل في الماضي لبني إسرائيل في عهد الملوك الأنبياء(٤٧).

---

(٤٥) سورة الصافات: الآيات ٣٠-٤٠، سورة النازعات: الآيات ١٥-٢٦، ٣٧-٣٩، سورة الفجر: الآيات ١٠-١٢، سورة المزمل: الآيات ١٥-١٦، سورة ص: الآيات ٥٥-٥٦.

(٤٦) سورة طه: الآيات ٤٣-٨١، سورة النازعات: الآيات ١٥-٢٦، ٢٦-٤٠، الطبري، جامع البيان، ج٢٣، ص ١٣٥-١٣٦، القرطبي، الجامع لأحكام القران، ج١٥، ص ١٦٤، ص ١٨٨-١٨٩.

(٤٧) دروزة، محمد عزة، سيرة الرسول، القاهرة، ١٩٤٨، ج٢، ص ٣٢٧.

في نهاية العهد المكي أصبحت صورة المجتمع الإسلامي الجديد واضحة، بالنسبة إلى المسلمين وخصومهم. وكانت أهم الملامح والسمات التي تميز أفراد هذا المجتمع، انهم مسلمون، يخضعون لله ويخشونه، ويتقربون إليه تعالى بالصلاة وغيرها من العبادات وأعمال البر، وهم في الوقت نفسه عادلون في تعاملهم مع الناس، ويحبون الإحسان إلى غيرهم، ويساعد بعضهم بعضا. كما أنهم يحترمون عهودهم ويلتزمون بتنفيذها[٤٨]. أما إدارة شؤونهم بوصفهم جماعة، فكانت تتم عن طريق (الشورى)، وقد وصف القرآن الكريم حالة المؤمنين من هذه الناحية بقوله: (وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)[٤٩].

ويلاحظ ان القران الكريم كان طوال العهد المكي يحث المسلمين على تحمل أذى المشركين وعدم الرد على عدوانهم بالمثل. غير انه قبيل هجرة المسلمين إلى يثرب بقليل نزل عدد من الآيات القرآنية التي تسمح لهم بالرد على إساءة المشركين وعدوانهم[٥٠]. كما أكدت حقهم في الثأر ممن ظلمهم[٥١]. وتعد هذه الآيات مقدمة وتمهيد لنزول الآيات التي تسمح للمسلمين باستخدام القوة في مجاهدة أعدائهم من المشركين الذين بدأوهم بالعدوان واضطهدوهم مدة طويلة من الزمن[٥٢].

(٤٨) سورة النحل: أية ٩٠، دروزة، سيرة الرسول، ج٢، ص ٣٢٧.

(٤٩) سورة الشورى: الآيات ٣٩-٤٤، القرطبي، الجامع لأحكام القران، ج١٦، ص ٣٦.

(٥٠) سورة الشورى: الآيات ٣٩-٤٤، القرطبي، الجامع لأحكام القران، ج١٦، ص ٣٨.

(٥١) سورة الإسراء: الاية٣٣، الطبري، جامع البيان، ج١٥، ص ٨٢.

(٥٢) القرطبي، الجامع لأحكام القران، ج١٦، ص ٣٨، دروزة، سيرة الرسول، ج٢، ص ٢١٧.

تكامل المجتمع الإسلامي في المرحلة المدنية وتوسعه

حينما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم و أصحابه المكيين إلى المدينة كانت الملامح العامة للمجتمع الإسلامي الجديد قد أخذت صورتها الواضحة كما قدمنا وان كان عدد أفراده لا يزال قليلا، إذ قدر عدد المهاجرين بنحو سبعين مهاجرا، فإذا أضفنا إليهم بعض من كان مهاجرا إلى الحبشة ومن حبس في مكة، فان عددهم سيكون نحو مائة وخمسين مسلما(٥٣).

ويلاحظ ان المسلمين الأولين كانوا يمثلون جميع فئات المجتمع المكي، ففيهم الرجال والنساء، والأحرار والموالي والرقيق، كما انهم كانوا يضمون في صفوفهم أفرادا من جميع العشائر التي تتألف منها قبيلة قريش. وهكذا فان المجتمع الإسلامي الجديد الذي هاجر أفراده من موطنهم الأول مكة إلى موطنهم الثاني المدينة كان يمثل الفئة المؤمنة الواعية من أفراد المجتمع القديم.

لقد شهدت المرحلة المدنية من تاريخ الدعوة الإسلامية عمليتين خطيرين في مجال بناء المجتمع الإسلامي الجديد وتطوره، إذ أدت هجرة المسلمين المكيين ومعظمهم كانوا ينتمون إلى قبيلة قريش إلى عملية توحيدهم مع سكان المدينة القدماء من الأوس والخزرج واليهود في إطار (الأمة الواحدة)، كما أدت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بصفته رسول الله الذي آمن المسلمون به وأسلموا قيادتهم إليه إلى ظهور السلطة السياسية المستقلة للمجتمع الإسلامي الجديد ونشوء دولة المدينة.

(٥٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص ٤٧٦-٤٨٠.

ان دراسة النصوص التي أوردتها المصادر التاريخية عن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة تشير إلى ان أهل المدينة قد استقبلوا الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بصفته لاجئاً يبحث عن الحماية، وانما بصفته رسولاً وقائداً للمسلمين الذين بايعوا بيعتي العقبة الأولى والثانية وأعلنوا استعدادهم لطاعته والخضوع لأوامره(٥٤). أما غير المسلمين فأنهم لم يظهروا معارضة لقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وصوله إلى المدينة مباشرة، الأمر الذي عد بمثابة اعتراف ضمني بقيادته(٥٥). وان مما عزز من موقف الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة وساعده على تولي القيادة فيها ان أهل المدينة كانوا منقسمين على أنفسهم انقساما شديدا، ولم يكن في المدينة زعيم معترف بزعاماته من قبل جميع أهل المدينة(٥٦).

وهكذا فان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أصبح الرئيس الأعلى للمدينة وأخذ يمارس سلطته في إدارة شؤونها بالتعاون مع النقباء الأثني عشر من زعماء الأنصار فضلاً عن بعض كبار المهاجرين وفي المقدمة منهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

ومع ظهور السلطة السياسية الموحدة في المدينة تكاملت لها "الشروط الضرورية كافة لقيام (دولة-مدينة)، فقد كان لهذه انمدينة (شعب) مؤلف من الأوس والخزرج والمهاجرين واليهود، وهم يقيمون إقامة دائمة على (إقليم) مدينة يثرب، ويحكمهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بمساعدة ممثلي الأوس

(٥٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص ٤٢٩-٤٤٩.

(٥٥) المصدر نفسه، ق١، ص ٤٩٢.

(٥٦) المصدر نفسه، ق١، ص ٤٢٨-٤٢٩.

والخزرج والمهاجرين، وقد كانت هذه المدينة (مستقلة) أي غير خاضعة لدولة أجنبية"(٥٧).

ويلاحظ ان دولة-المدنية كانت ضعيفة في بداية نشأتها، لأن شعبها كان منقسما إلى فئات متعددة: أوس، خزرج، ومهاجرين من مكة، ويهود. كما ان السلطة الناشئة لم تتمتع بكامل تأييد هذا الشعب لاختلاف مواقف الفئات التي يتألف منها. لذا كان على الرسول صلى الله عليه وسلم ان يبذل جهودا كبيرة من أجل تقوية مركزه وسلطته في المدينة. كما كان عليه ان يتخذ عددا من الإجراءات الضرورية لتوحيد شعبه. وكانت أهم الإجراءات التي أتخذها ما يأتي:

١. **بناء المسجد**: لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم قائداً دينيا قبل كل شيء (رسول الله)، وقد استمد من هذا المركز سلطاته السياسية والإدارية والقضائية. لذا كان من الطبيعي ان يعمد بعد وصوله إلى المدينة مباشرة إلى بناء المسجد. ثم قام ببناء مساكنه بجواره ومن المسجد قاد الرسول صلى الله عليه وسلم أفراد المجتمع الإسلامي الناشئ، ليس في مجال الصلاة والعبادات فحسب، بل في مجالات الحياة كافة(٥٨).

٢. **المهاجرين والأنصار**: من أجل توحيد مسلمي المدينة، قام الرسول صلى الله عليه وسلم بإطلاق اسم جديد عليهم ليحل محل الأسماء القبلية التي كانت مرتبطة بالانقسامات والصراعات. فبدلا من تسمية الأوس والخزرج القبلية أطلق على مجموع مسلمي المدينة تسمية (الأنصار).

---

(٥٧) الملاح، د. هاشم يحيى، حكومة الرسول، بغداد، ٢٠٠٢، ص ٥٣.

(٥٨) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص ٤٩٦-٤٩٨.

لأنهم نصروا إخوانهم المهاجرين من مكة فمنحوهم الحماية والمساعدة. كما أطلق على المهاجرين من قريش وغيرها تسمية (المهاجرين). لأنهم هاجروا من ديارهم، وبذلك أصبح المجتمع الإسلامي في المدينة يتألف من المهاجرين والأنصار[٥٩].

٣. **المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:** في السنة الأولى للهجرة، عقد الرسول صلى الله عليه وسلم عهد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك[٦٠]. وكان الهدف منه توحيد المسلمين على أساس رابط العقيدة التي تقدمت على الرابطة القبلية في تكوين المجتمع الجديد. كما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم من عقد المؤاخاة زيادة التلاحم بين المهاجرين والأنصار، وحل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي أخذت تواجه المهاجرين بعد وصولهم إلى المدينة[٦١].

وقد نص عقد المؤاخاة على ان يكون كل مهاجر أخا لأحد الأنصار، ومن ثم يصبح من الواجب ان يساعد أحدهما الآخر، كما يكون من حق أحدهما ان يرث الآخر عند وفاته[٦٢].

وحين تحسنت الظروف الاقتصادية للمهاجرين بسبب الغنائم التي حصل عليها المسلمين اثر انتصارهم في معركة بدر في السنة الثانية للهجرة، نص القران الكريم على إلغاء حق التوارث بين المهاجرين والأنصار، ورد التوارث إلى قرابة

---

(٥٩) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠١-٥٠٧.

(٦٠) ابن سيد الناس، محمد، عيون الأثار في فنون المغازي والشمائل والسير، القاهرة، ١٣٥٦ هـ، ج٢، ص ٢٨٣.

(٦١) ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، بيروت، ١٩٦٠، ج١، ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٦٢) المصدر نفسه، الطبقات الكبرى، بيروت، ١٩٦٠، ج١، ص ٢٣٨-٢٣٩.

الدم وأبقى على الحقوق المترتبة على الأخوة في الدين التي تربط بين المسلمين جميعا[٦٣].

٤. **إعلان الصحيفة (دستور المدينة)**: بعد ان استقر الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة وآخى بين المهاجرين والأنصار سعى لتنظيم العلاقات بينه وبين جميع الفئات التي كانت تعيش في المدينة فكتب كتاباً بينهم يتألف من نحو خمسين فقرة لتنظيم هذه العلاقات[٦٤]. وقد أتسم هذا الكتاب بالشمول من حيث تنظيمه العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية. لذا وصفه كثير من الكتاب المعاصرين بأنه (دستور المدينة)[٦٥]. وقد عالج هذا الكتاب الأمور الآتية:

١. **الأمة**: عد دستور المدينة جميع المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب "ومن تبعهم، ولحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس"[٦٦]. وبذلك لم تعد المدينة مقصورة على المهاجرين والأنصار وحدهم وانما تضم فضلاً عنهم كل من أرتضى ان يكون معهم من مشركي الأوس والخزرج والعشائر اليهودية المتحالفة معهم. لأن يهود هذه العشائر كانوا يعدون (أمة مع المسلمين) [٦٧] أو أنهم (أمة من المسلمين) [٦٨] بحسب الرواية التي أوردها أبن سلام.

(٦٣) سورة الأنفال: الآيتان ٧٤-٧٥، القرطبي، الجامع لأحكام القران، ج٨، ص ٥٦.

(٦٤) أبن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص ٥٠١-٥٠٤.

(٦٥) الملاح، حكومة الرسول، ص ٥٧-٦٩، الشريف، الدولة الإسلامية الأولى، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٧٥-٧٧.

(٦٦) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص ٥٠١.

(٦٧) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠٣.

(٦٨) أبن سلام، أبو عبيد أبن القاسم الهروي، الأموال، القاهرة، ١٣٥٣ هـ، ص ٢٠٤.

يتضح مما تقدم، ان الأمة الناشئة في المدينة هي كيان (سياسي-اجتماعي)، يختلف عن القبيلة من حيث ان القبيلة تقوم على رابطة الدم والقرابة بين أفرادها، في حين تتجاوز الأمة حدود الروابط القبلية لتضم في إطارها أكثر من قبيلة. كما ان الأمة تتخذ من العقيدة الدينية، أو الولاء السياسي لها أساساً للترابط بين أفرادها. فهي من هذه الناحية أوسع من مفهوم الملة أو الجماعة الدينية التي تكون مقصورة على ديانة واحدة. وبذلك كانت الأمة حسبما حددها دستور المدينة صيغة وسطا، أو صيغة ثالثة بين الجماعة الواحدة التي تعتنق ديناً واحداً وبين الجماعة التي أرسل الله لهم رسولاً سواءً آمنوا به أم لم يؤمنوا.

ان الأمة الجديدة هي الجماعة التي ارتضت ان تعيش في إطار النظام الإسلامي وتحت قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم سواء أكان أفرادها قد آمنوا بالرسالة الإسلامية أم لم يؤمنوا بها بعد. وهكذا شكلت الأمة الإطار السياسي الذي تعيش فيه جميع الفئات التي ارتضت ان يمثل الإسلام الإطار الفكري (الآيديولوجي) الذي تعيش فيه حياتها السياسية(٦٩).

ان هذه الحقيقة، قد جعلت المسلمين من المهاجرين والأنصار يشكلون النواة المركزية للامة التي تعمل على تحقيق أهدافها والجهاد في سبيلها، في الوقت الذي ينتظر من الفئات الأخرى من مشركين ويهود ان يؤدوا دوراً مساعداً ومساندا للمسلمين(٧٠).

(٦٩) السيد، رضوان، الأمة والجماعة والسلطة، بيروت، ١٩٨٤ان ص ٥٤.

(٧٠) فلهاوزن، يوليوس، تاريخ الدولة العربية، نقل عن الألمانية، د. محمد عبد الهادي، أبو ريده، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٢.

ان الأمة في صيغتها التي نص عليها دستور المدينة قد جعل منها إطارا سياسياً مفتوحاً لانضمام كل الأفراد والجماعات التي ترتضي الحياة في إطارها، وبذلك أفسحت مجال النمو والتطور لدولة المدينة لتتحول إلى دولة كبرى تضم معظم القبائل في أواخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم لتتسع وتتحول في عهد الخلفاء الراشدين إلى دولة عالمية تضم شعوباً وقبائل متنوعة تعيش جميعاً في إطار النظام الإسلامي.

ويلاحظ هنا، ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يستخدم مصطلح (دولة) لوصف السلطة الناشئة في المدينة، وانما استخدم مصطلح أمة الذي يحمل معنى أوسع من معنى دولة. أما مصطلح دولة فقد استعمل في العصور الإسلامية التالية بمعنى الأسرة الحاكمة نحو قولهم دولة بني أمية ودولة بني العباس[٧١].

بعد هذا التوضيح لمصطلح أمة، فقد بات من الضروري ان نعرض لمضمون الفقرات التي وردت في الصحيفة (دستور المدينة) والتي تنظم العلاقات بين المؤمنين والمسلمين من أهل المدينة:

١. ان العلاقات بين المؤمنين من مهاجرين وأنصار الذين تضمهم الأمة تقوم على أساس التكافل والتضامن. لذا فأن من الواجبات الملقاة على عاتق المؤمنين كافة، ألا يتركوا أسيرا منهم بين الأعداء من دون ان يبادروا إلى تحريره عن طريق دفع الفدية[٧٢].

(٧١) الملاح، د. هاشم يحيى، نشأة وتطور مفهوم الدولة في الفكر الإسلامي، مجلة آداب الرافدين، الموصل، عدد ٤، ١٩٧٢، ص ٥٢-٥٦.

(٧٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص ٥٠٢.

٢. عد دستور المدينة جميع المسلمين متساوين، ومن ثم، فأن من حق أي واحد منهم ان يمنح (الجوار) لمن يستجير به من الغرباء، وأن من واجب جميع المسلمين ان يحترموا هذا التصرف(٧٣).

٣. لا يجوز لأي مسلم ان يتحالف مع (مولى) مسلم آخر من دون أخذ موافقته على ذلك دفعا لأسباب الخلاف والنزاع بين المسلمين(٧٤).

٤. إذا أقترف أحد الأفراد جريمة قتل ضد أحد المسلمين فهو يعاقب بالقتل، إلا ان يعفو ولي المقتول عنه ويوافق على أخذ الفدية(٧٥).

٥. على جميع المؤمنين ان يتعاونوا في تنفيذ العقوبات ضد الجناة حتى ولو كان الجاني ولد أحدهم، وبذلك لم يعد ثمة مكان في الأمة الجديدة للعصبية وعادة أخذ الثأر(٧٦).

٦. ان على المسلمين ان يتعاونوا ويتضامنوا في أوقات السلم وأوقات الحرب(٧٧).

٢. **تنظيم العلاقات القبلية:** اعتراف دستور المدينة بالكيانات القبيلة والعشائرية التي كانت قائمة في المدينة، وتعامل معها بوصفها وحدات إدارية في داخل الأمة الواحدة. ومن ثم فهي تخضع للسلطة العليا للرسول صلى الله عليه وسلم بصفته القائد الأعلى للأمة.

---

(٧٣) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠٢-٥٠٣.

(٧٤) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠٢.

(٧٥) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠٣.

(٧٦) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠٣.

(٧٧) أبن هشام، السيرة، ق١، ص ٥٠٣.

وهكذا فقد عد دستور المدينة المهاجرون وحدة قبلية إلى جانب بقية القبائل الموجودة في المدينة. وكان من واجبات هذه الوحدات القبيلة بحسب نصوص دستور المدينة، المحافظة على التعاون والتضامن بين أبناء كل قبيلة كما كانوا يفعلون سابقا. وان يتحملوا جميعا أعباء (فدية) أبناء القبيلة الذين يقعون في الأسر من اجل تحريرهم، كما ان عليهم ان يساعدوا الأفراد المثقلين بالديون من أجل وفاء دينهم كي لا يصبحوا بمثابة أسرى عند دائنيهم(٧٨).

٣. **تنظيم العلاقات مع اليهود:** عد دستور المدينة كل عشيرة من العشائر اليهودية في المدينة جماعة قائمة بذاتها، ألا أنها في الوقت نفسه تكون أمة من المؤمنين(٧٩).

وقد نظم دستور المدينة العلاقات بينهم وبين المؤمنين على وفق المبادئ الآتية:

١. أعتراف دستور المدينة لليهود بحرية ممارسة عقيدتهم(٨٠).
٢. لا يجوز لأحد ان يقوم بالاعتداء على أحد من يهود المدينة أو حلفائهم(٨١).
٣. إذا أرتكب أحد اليهود اعتداء أو جريمة ضد أحد أبناء المجتمع فمسؤولية ذلك تقع عليه وحده(٨٢).
٤. على اليهود ان يشاركوا المؤمنين في الدفاع عن المدينة، وعليهم ان يساعدوهم في مقاومة أعدائهم(٨٣).

---

(٧٨) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠٢.

(٧٩) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠٣.

(٨٠) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠٣.

(٨١) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠٣.

(٨٢) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠٣.

(٨٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ت١، ص ٥٠٣-٥٠٤.

٥. على اليهود ان لا يتحالفوا مع قريش وحلفائهم، وألا يوافقوا على حماية تجارتهم(٨٤).

٦. على اليهود ان لا يحاربوا أحدا أو يوافقوا على الاشتراك في حرب أي جماعة دون موافقة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم(٨٥).

٧. إذا وقعت أية منازعة خطيرة بين اليهود أو بينهم وبين الآخرين من أهل المدينة فيجب ان تعرض على الرسول صلى الله عليه وسلم ليفصل فيها(٨٦).

٨. ان جميع الحقوق والالتزامات المذكورة آنفاً تسري على حلفاء اليهود في المدينة(٨٧).

٤. **مركز الرسول صلى الله عليه وسلم وعلاقته مع أهل المدينة**: تحددت علاقات الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل المدينة بحسب أحكام دستور المدينة على وفق الأسس الآتية:

١. أن مركز الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة وعلاقاته بأهلها قد نظمتها حقيقة أنه رسول الله. ومن ثم، فقد نص دستور المدينة على ان يثرب هي (حرم آمن) لأنها مدينة الرسول(٨٨).

٢. أقر دستور المدينة ان الرسول صلى الله عليه وسلم يعد (حكماً) بين أهل المدينة وله الكلمة النهائية في فض المنازعات التي تحصل بينهم(٨٩).

---

(٨٤) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠٣-٥٠٤.

(٨٥) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠٣-٥٠٤.

(٨٦) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠٤.

(٨٧) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠٣.

(٨٨) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠٤.

(٨٩) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠٤.

٣. أن مجموع نصوص دستور المدينة قد تعاملت مع الرسول صلى الله عليه وسلم بصفته الرئيس الأعلى لأهل المدينة وصاحب الحق في اتخاذ القرار النهائي في أمور الحرب والسلام(٩٠).

الجهاد وسيادة المجتمع الإسلامي في شبه الجزيرة العربية

ان الإجراءات التي أتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة والتنظيمات التي أعلنها في الصحيفة (دستور المدينة) قد منحت المجتمع الإسلامي الجديد ملامح العامة، ولم تبق سوى التفاصيل وبخاصة في مجال التشريعات القانونية والدينية التي تواصل نزول الوحي بها على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى نهاية المرحلة المدينة.

أما على مستوى حماية هذا المجتمع ونموه وامتداده، فقد شكلت الهجرة إلى المدينة نقطة تحول كبرى في حياته، إذ تحول بعد الهجرة من مجتمع مضطهد يعيش تحت سلطة أعدائه في مكة، إلى (أمة) مستقلة، تعيش وتنمو وتتوسع تحت قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم. ومن ثم فقد أصبح في إمكان هذه (الأمة-الدولة) ان تواجه أعدائها بالقوة إذا اقتضت الضرورة، بعد ان كانت تكتفي بالصبر والمسامحة. لذا لم يعد (الجهاد) في سبيل الله مقصورا على بذل الجهد في سبيل نشر الدعوة عن طريق الكلمة والإقناع، بل انضاف إليه بذل الجهد في استعمال السيف في قهر الأعداء في ميدان القتال. وقد أوضح القران الكريم هذا التحول ودوافعه بقوله: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ

(٩٠) المصدر نفسه، ق١، ص ٥٠١-٥٠٤.

بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)[٩١].

يتضح من الآيات المذكورة آنفاً ان الله تعالى أذن للامة الناشئة ان تلجأ إلى السيف لمواجهة قبيلة قريش التي اضطهدت المسلمين ومنعتهم من حقهم في ممارسة شعائر دينهم والدعوة إلى الله، وأخرجتهم في النهاية من موطنهم تحت وطأة الضغط والإكراه. لذا فقد شرع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد استقراره في المدينة في تنظيم سرايا مسلحة من أصحابه للقيام باعتراض قوافل قريش التجارية ومصادرتها[٩٢]. ويبدوا ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستهدف من هذا العمل توجيه ضغط اقتصادي على زعماء مكة من أجل حملهم على تغيير موقفهم من المسلمين وإقامة علاقات طبيعية معهم. إلا ان قريشاً رفضت الخضوع لهذا الضغط ولجأت إلى المواجهة المسلحة ضد المسلمين، مما أدى إلى حصول معركة بدر في السنة الثانية من الهجرة حيث تحقق فيها انتصارا كبير للمسلمين[٩٣].

وقد حمل هذا الانتصار قريشاً على إعداد أقصى ما تستطيع من قوة للثأر من المسلمين، وقد تم لها ما أرادت في معركة أحد التي وقعت في السنة الثالثة للهجرة[٩٤]. ثم واصلت قريش جهودها في جمع الأنصار والحلفاء،

(٩١) سورة الحج: الآيات ٣٠-٤١.

(٩٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ق١، ص ٥٩١-٦١٠.

(٩٣) المصدر نفسه، ق١، ص ٦١٠-٦٥٠؟.

(٩٤) المصدر نفسه، ق٢، ص ٦٠-١٠١.

الأمر الذي ساعدها على حصار المدينة في غزوة الأحزاب في السنة الخمسة للهجرة، ولكنها فشلت في اقتحام المدينة[٩٥]. وبذلك عدت نتيجة هذه الغزوة انتصاراً للمسلمين.

ويلاحظ ان القبائل اليهودية في المدينة (بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة) قد استغلوا ظروف الصراع بين المسلمين ومشركي مكة فنقضوا العهود المبرمة بينهم وبين المسلمين وخرجوا على أحكام دستور المدينة، فاضطر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إجلائهم عن المدينة الواحدة تلو الأخرى والتنكيل ببني قريظة خاصة، وبذلك لم يعد لليهود في المدينة وجود مؤثر، واستمر الرسول صلى الله عليه وسلم يتعامل مع اليهود الذين لم ينقضوا العهد بوصفهم معاهدين يعيشون في ذمة المسلمين وحمايتهم[٩٦].

أما قريش، فقد حاول الرسول صلى الله عليه وسلم ان يستغل ظروف انكسارهم في غزوة الأحزاب. فقام في السنة السادسة للهجرة بقيادة حملة مؤلفة من نحو ألف وأربعمائة مسلم وتوجه بها إلى مكة ليس لغرض الحرب والقتال وانما لأداء العمرة وتشجيع قريش على الدخول في علاقات سلمية مع المسلمين. إلا ان قريشاً رفضت هذه المبادرة، وهددت باستخدام السلاح لمنع المسلمين من دخول مكة. غير أنها اضطرت في النهاية تحت ضغط حلفائها الذين استنكروا موقفها من المسلمين الذين جاءوا مكبرين وزائرين لبيت الله الحرام إلى مفاوضة المسلمين وتوقيع صلح الحديبية معهم[٩٧].

---

(٩٥) المصدر نفسه، ق٢، ص ٢١٤-٢٣٣.

(٩٦) المصدر نفسه، ق٢، ص ٤٧-٥٠، ص ١٩٠-٢٠٣، ص ٢٣٣-٢٥٠.

(٩٧) ابن هشام، السيرة النبوية، ق٢، ص ٣٠٨-٣٢٧.

ان صلح الحديبية قد ضمن للمسلمين الحق في زيارة الكعبة في السنة التالية، والحق في نشر الدعوة الإسلامية بين القبائل العربية، مما فتح للرسول صلى الله عليه وسلم المجال في كسب مزيد من الأنصار والحلفاء والقضاء على معارضة بعض الخصوم الألداء كيهود خيبر. وبذلك أصبحت (الأمة) الجديدة مهيأة لمواجهة أي قوة تقف في وجهها أو تتحداها في شبه الجزيرة العربية[٩٨].

وتأكيداً لهذا الواقع، فأن قريشا ما كادت تخل بأحد بنود صلح الحديبية في السنة الثامنة للهجرة حتى توجه الرسول صلى الله عليه وسلم على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف مقاتل وفتح مكة من دون مقاومة يعتد بها[٩٩]. وبذلك تمكن من وضع حد لمقاومة قريش للدعوة الإسلامية التي استمرت عشرين عاماً. وهكذا فقد أقبل زعماء مكة وأبناؤها على مبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم والدخول في الإسلام بعد ان تبين لهم بالدليل العملي الملموس فساد معتقداتهم الوثنية ووهن الأسس التي كان يقوم عليه مجتمعهم الجاهلي القديم.

لقد كانت مكة عاصمة الشرك في شبه الجزيرة العربية، ومن ثم فقد أدى فتحها ودخول أهلها في الإسلام إلى دخول بقية بلاد العرب في الإسلام بسهولة ويسر...، فلم تلبث مدينة الطائف ان جاءت مسلمة[١٠٠]، ثم أخذت القبائل العربية ترسل الوفود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لمبايعته على الإسلام، حتى لقد أطلق على السنة التاسعة للهجرة عام الوفود لكثرة الوفود العربية التي وفدت

(٩٨) ابن هشام، السيرة النبوية، ق٢، ص ٣٢٨-٣٠٧.

(٩٩) المصدر نفسه، ق٢، ص ٣٨٩-٤١٨.

(١٠٠) المصدر نفسه، ق٢، ص ٥٣٧-٥٤٢.

على المدينة لمبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة والدخول في الإسلام[١٠١]. لذا أعلن القران الكريم في هذا العام إلغاء الشرك من الجزيرة العرب، وحرم على المشركين زيارة الكعبة[١٠٢]. وبذلك اصبح الإسلام هو العقيدة الرسمية للعرب وللأمة الجديدة تصديقاً لقوله تعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)[١٠٣].

وفي الختام، فان للقارئ المدقق ان يتساءل كما تساءل كاتب هذه السطور: أمن المعقول ان تكون الآلاف المؤلفة من مشركي العرب قد آمنوا بالدين الجديد عن إيمان وقناعة وعزم على الالتزام بأحكام الدين الجديد جملة وتفصيلاً أم ان في الأمر غموضاً وهو بحاجة إلى شرح وتوضيح؟.

في الحقيقة، ان الإيمان واختيار العقيدة الصحيحة أمر شاق وعسير وهو يتطلب مستوىً من الفهم العميق، وقدراً من الشعور المرهف، وعزماً وشجاعة لا يستطيع الجمع بينها إلا عدد قليل من الأفراد المتميزين في كل زمان ومكان. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الأولون خير من يمثل هذه الصفوة من الناس في ذلك الزمان.

أما عامة الناس، فان مستوى مداركهم العامة وطبيعة مشاغلهم الحياتية، تجعلهم لا يهتمون بتفاصيل أمور العقيدة ألا قليلا، وهم يميلون إلى تقليد ما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم وكبراءهم. لذا فقد جارى غالبية الناس زعماءهم في معارضة الدعوة الإسلامية ومحاربتها... واستمروا على هذا الحال حتى ضعفت

(١٠١) المصدر نفسه، ق٢، ص ٥٥٩ـ٦٠٠.

(١٠٢) سورة التوبة: الآيات ١ـ٨.

(١٠٣) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

شوكة زعمائهم وانهارت قدرتهم على مقاومة رجال الدين الجديد سواءً على مستوى المبادئ والحجج، أم على مستوى القوة والقتال. عند ذلك، وجد معظم العرب ان الحكمة والمصلحة تدعوهم إلى الدخول في الدين الجديد. فدخلوا فيه ما بين المؤمن مصدق، ومسلم خاضع، ومسلم طامع. وقد أثبتت حركات الردة التي ظهرت قبيل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حقيقة هذا التفسير، وهو تفسير سبق إليه القرآن الكريم حين أشار إلى ظاهرة النفاق والمنافقين التي ظهرت في المجتمع الإسلامي في المرحلة المدنية[١٠٤]. كما أشار إلى ان ليس كل من نطق بكلمة الأيمان فقد غدا مؤمناً: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...)[١٠٥].

ولاشك، ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان مدركاً لهذه الحقيقة وهو يرى جموع العرب والأعراب تدخل في الإسلام. ولكن، ما الذي كان بوسعه ان يصنعه لمعالجة هذه الظاهرة سوى ان يرسل المعلمين والمرشدين ليعلموا الناس القرآن، ويرشدوهم إلى سبل العمل الصالح والالتزام الدقيق بأوامر الدين. وقد فعل[١٠٦]، وكان في فعله محكوماً بحدود إمكانيات عصره وبيئته...، وترك ما وراء ذلك إلى الزمن، فكان خير علاج في مجال تعميق أسس الهداية والإيمان في النفوس.

(١٠٤) سورة التوبة: الآيات ٦٤-٧٠، ٧٣-١١٠، سورة الأحزاب: الآيات ١٠-٢٠، ٦٠-٧٣.

(١٠٥) سورة الحجرات: الآية ١٤، وانظر أيضا سورة التوبة: الآيات ٩٠-١٠١.

(١٠٦) الخزاعي، علي بن محمد، تخريج الدلالات السمعية، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت ١٩٨٥، ص ٩١-٩٢.